أمير المؤمنين في الحديث

قصة حياته، ونبذة من أحواله[1]

بقلم: محمد حماد الكريمي الندوي[2]

التعريب: عبد المالك السهارنفوري[3]

التمهيد:

الإسلام دين شامل ونظام كامل، يعلو ولا يعلى عليه أبداً، ولو اجتمع الأعداء والأشرار بقضّهم وقضيضهم للهجوم عليه لما استطاعوا، لأن الله تبارك وتعالى هو الذي تولّى بحفظه من مؤامرات الأعداء ومكائدهم، وجعل محاولاتهم فاشلة ومهماتهم خائبة، فقال في كتابه الخالد الباقي إلى يوم القرار: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ﴾[4]، وقال في موضع آخر: ﴿يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُطْفِؤُوْا نُوْرَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللّٰهُ مُتِمُّ نُوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ﴾[5]، وأيضاً قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[6]، كما أنه حقّق إجراءات الحفظ وشغل به عباده المخلصين على صفة الوسائل الظاهرة والوسائط العامة، فأعطى الحفّاظ الاهتمام بحفظ ألفاظ القرآن الكريم وحروفه، وقراءته القرّاء بالصحة والطراوة، والتزم بمعانيه المفسرون الكرام، وبمعاني الحديث الشريف المحدثون العظام، واستنبط الفقهاء البررة بهما الأحكام الفقهية والمسائل الدينية.

ومن المعلوم أن أقسام الحفظ لا تخرج عن إثنين، الأول: الحفظ بالقلب، والثاني: الحفظ بالكتابة، فكان الرجال من الطبقة الأولى يحفظون أحاديث الرسول ﷺ بقلوبهم الطاهرة، وخواطرهم الزكية، ثم الذين يلونهم جيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، لأنهم كانوا أقوى الرجال ذاكرة، وأضبطهم صدراً، وأحبهم لمحمد ﷺ من كيفيات وأطوار، ولم يقصروها على أنفسهم بل بلّغوها إلى من سواهم من خلائق كثيرة بدون أي تفريق بين الأديان والملل، لأنهم سمعوا من رسول الله ﷺ: "ألا فليبلّغ الشاهد منكم الغائب"[7]، و "بلّغوا عني ولو آية"[8]، و "نضّر الله إمرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدّاها كما سمع"[9]، و "فربّ مبلّغ أوعى له من سامع"[10]، ولما ذهبت تلك الطبقة الأولى من الرعيل الأول، وجعل الحفظ يضعف، فأخذت مكانهم الكتابة، التي لم تزل منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم، ولما كانت أهداف الناس وأغراضهم من طلب الحديث وأخذه مختلفة، وكان من الممكن أن يقع الإخلال في الحديث فقضى الله بقوله: "يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"[11] ونهى النبي ﷺ عن ذلك

---

[1] - هذه المقالة في الأصل جزء من كتاب "روشن جراغ" بالأردية، الذي يشتمل على حياة عدّة شخصيات عالمية معروفة، وقبل شهور عقدت مسابقة كتابية عربية حول هذه الشخصيات، فقام الأخ عبد المالك السهارنفوري بنقله إلى العربية مساهماً في المسابقة، فله منا جزيل الشكر والجزاء.

[2] - مدير تحرير مجلة "النصيحة"، والأمين العام للمعهد الإسلامي العربي بالهند.

[3] - طالب دار العلوم التابعة لندوة العلماء، لكناؤ، الهند.

[4] - سورة الحجر، الآية: ٩

[5] - سورة الصف، الآية: ٨

[6] - سورة القيامة، الآية: ١٧

[7] - رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده برقم: ١٦٣٧٧، ٢٠٠٣٧، ١٦٨٢١، ٢٠٥٧٠ وغير ذلك.

[8] - رواه الإمام البخاري في باب "ما ذكر عن بني إسرائيل" برقم: ٣٢٧٤

[9] - رواه الإمام الترمذي في سننه في باب: "الحث على تبليغ السماع"، برقم: ٢٦٥٦

[10] - رواه الإمام البخاري في صحيحه في باب: "الخطبة أيام منى"، برقم: ١٦٥٤

[11] - سورة الحجرات، الآية: ٦

بحديثه: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[١٢]، وسدّ أئمة الحديث جميع الطرق لوضع الحديث يسهل بها الفرق بين الصحيح والضعيف والموضوع والمتروك وغيرها.

شخصية الشيخ رحمه الله:

من أولئك العلماء الأعلام الذين بذلوا ما كان عندهم من الجهود المكثّفة والمواهب الإلهية والملكات الخاصة لوظيفة حفظ الأحاديث والجرح والتعديل فيها بدقّة رائعة وخدمة هذا الفن الشريف بأحسن طريق: المحدث البارع الكبير والعالم الرباني العظيم **الشيخ محمد يونس الجونفوي** رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته، الذي صرف حياته ونذر أوقاته في سبيل العلم وخدمة الدين، والذي مثّل في العصر الراهن دوراً بارزاً كشيخ الحديث في جامعة مظاهر العلوم، الواقعة ببلدة سهارنفور، المعدودة من أكبر الجامعات في الهند، المشهورة بالمعلماء الصالحين والرجال العاملين في ميادين العلم والدين، ولعلماءها آثار جليلة في شرح كتب الحديث وخدمة هذا الفن الشريف، من أجلّها: "بذل المجهود في شرح سنن أبي داؤد" للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، و "أوجز المسالك في شرح المؤطا للإمام مالك" للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ لهذه الجامعة بمثابة العظم الفقري من الجسد، يحمل مجموعة من المكارم والفضائل، وله إفادات قيّمة ومواعظ رقيقة، وآراء طيبة في العلم والفكر والدعوة، إنه كان دائم الفكرة في الدعوة الإسلامية، وحزين القلب للأمة المسلمة، وصابر النفس على البلاء والمحنة، عزوف عن هوى النفس، طاهر اللسان، سليم الصدر، نقيّ القلب، صفيّ الضمير، سخيّ النفس، بسيط الكفّ، وكانت له مكانة مرموقة في كل فن من الفنون، وسمعة طيبة في علم الحديث بوجهٍ خاص، وبالجملة إن الله تعالى قد منحه كثيراً من الخصائص المهمة والميزات المختلفة التي لا تعدّ ولا تحصى.

ولادته ونشأته:

أسفر صبح حياته بقرية جونفور يوم الإثنين ٢٥/ من رجب المرجب سنة ١٣٥٥ هـ المصادف لـ ٢/ أكتوبر سنة ١٩٣٧م، انتقلت أمّه إلى رحمة الله في صغره، فنشأ وترعرع في تربية أبيه وجدته، وجعل يذهب إلى المدرسة مع خاله الكبير بغاية من الشوق والرغبة وهو ابن ست سنين، وكانت المدرسة تقع على مسافة ميل ونصف، لذلك ينال الجهد والتعب، فيحمله خاله على عاتقيه أحياناً ثم ينزله، ولم يزل شأنه حتى يقطع المسافة كلها، ولكن لم يستطع أن يتعلم هناك شيئاً لصباه، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية وتعلم فيها إلى دراسة السنة الثالثة من العلوم العصرية، إذ قال له أبوه شبير أحمد رحمه الله: "دع هذه الدراسة لأن هذا العهد ليس له أي صلة باللغة الإنجليزية، وأما اللغة الهندية لا أريد أن تحصل عليها"، وفي هذه الأيام حدثتت قصة عجيبة كتبها الأستاذ محمد أيوب السورتي في "اليواقيت الغالية"، يقول الشيخ: "ذات مرة أقرأ كتاباً باللغة الهندية كان فيه "الطائر يتغنى: رام رام"، لما سمعني أبي قائلاً هذه الجملة قال: "ضع هذا الكتاب ولا تقرأه"، هنا وقفت سلسلة الدراسة، ولم يزل الحال هكذا حتى مضت سنتان.

البيئة التي تربّى فيها:

البدعة والجهالة كانت عامة في منطقة جونفور في ذلك الزمان، بالرغم منها كان سكانها أولي العقيدة الصحيحة والنزعة الدينية، ومع ذلك قد تأثرت قريته بالبدع والضلالات المختلفة كاتخاذ التعزية وضرب الطبل وعقد المجلس للصلوة والسلام، يشترك فيها كثير من أسرته، وبالأخص جدّه من

---

[١٢] - رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب "التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم"، برقم: ٣

الأب سوى أبيه، فلما اتسع الخرق على الواقع وطمّ الوادي على القرى كسر جدّه رحمه الله الطبل، وقضى على هذه البدع كلها، فلما بدأ اختلاف الأستاذ عبد الحليم رحمه الله إلى قريته وبدأ يبذل جهوده فقعمها إلى الأبد.

الدراسة الابتدائية:

حفظ القرآن الكريم تحت ظلال أبيه شبير أحمد رحمه الله، ثم التحق بمدرسة ضياء العلوم التي كانت قائمة على مسافة ثلاثة أميال من قريته في "ماني كلان"، وقرأ بعض الدروس من كتاب "تعليم الإسلام" عند الأستاذ نور محمد، ولما بلغ سنّ الرشد بدأ الدراسة الابتدائية للغة الفارسية والعربية إلى كتاب "مختصر المعاني" تحت إشراف الأستاذ ضياء الحق، وقرأ كتاب "شرح الجامي" إلى باب بيان الإسم من الأستاذ عبد الحليم، ثم انقطعت سلسلة التدريس لكثرة الأمراض المختلفة إلى فترات طويلة، لم تبلغ الكتب لأجلها إلى حد الكمال، ثم تفرّقت جماعته بعد عدة أيام، فأمره الأستاذ عبد الحليم رحمه الله تبارك وتعالى إعادة السنة لفقد الجماعة التي كان فيها حينئذ.

رحلته للدراسة العالية:

أوّل ما بدأ رحلته لتلقّي العلوم من بيته إلى سهارنفور بجامعة مظاهر العلوم سنة ١٢٧٧ من الهجرة، التي كانت حينئذ مملوءة بزمرة من العلماء الأفذاذ والراسخين في العلوم والعبادة، التحق بها وأخذ الدراسة من القسم العالي، ففي السنة الأولى من التحاقه بالمدرسة درس تفسير "الجلالين" والمجلد الأول والثاني من كتاب "الهداية"، والميبذي، وفي السنة الثانية قرأ صحيح البخاري على فضيلة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وسنن أبي داؤد على الأستاذ أسعد الله، والصحيح لمسلم على الشيخ منظور خان، وجامع الترمذي والنسائي على الأستاذ أمير أحمد رحمهم الله.

وإنه عاش عهده الدراسي مكبّاً على طلب العلم، وإنه كان يجدّ كثيراً، ويتعب تعباً لا راحة معه، ولا يستريح نهاراً ولا ليلاً، ولا جمعةً ولا عيداً، حتى ولا في الإجازات السنوية، وإنه كان من أقرب تلاميذ الشيخ المحدث زكريا الكاندهلوي وأبرّهم، فربّاه تربية حسنة، واستسقى من فكرته النيّرة، ونظرته الثاقبة، وغيرته الدينية، وحميته الإسلامية، وقلبه اليقظ، وفراسته الإيمانية، وحسّه المرهف، وذوقه الرفيع، وأسلوبه الدعوي، وعقله المتضح، وكانت خصائصه المذكورة بعيدة الأثر في أهدافه النبيلة، وأغراضه المنشودة، وأقوى العناصر في تكوينه بعد استعداده الطبيعي وتشجيع والده، مع ذلك أعطى اهتمامه كلّه بتلقّي العلوم، وأخذ بحظٍّ وافر من العلوم، من أجل ذلك كان لم يزل طالباً بارزاً من جميع الطلاب.

على منصب التدريس:

بدأ مهنته العلمية بالتدريس في جامعة مظاهر العلوم بعد تخرّجه فيها سنة ١٣٨٢هـ، أولاً ألقى الدرس على الطلاب حول كتب الفنون المختلفة إلى سنة ١٣٨٤هـ، ثم تولّى على تدريس الحديث الشريف ودرّس مشكوة المصابيح، وبعد ما مضت مدة يسيرة بدأ تدريس طلاب الصف الأخير سنة ١٣٨٦هـ، ودرّس سنن أبي داؤد وسنن النسائي ونور الأنوار، ثم حاز على مرتبة التدريس لصحيح البخاري، بأن أصيب قطب العرب والعجم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله بمرض الرمد في عينيه، وما طال الزمن حتى نال رتبة جليلة مرموقة لـ "شيخ الحديث" على طريقة رسمية، وكان له صيت في الهند وخارجها لجهده العملاق وإسهاماته الجليلة في الحديث الشريف.

أسلوب تدريسه المثالي:

قال الأستاذ محمد أيوب السورتي، تلميذ شيخنا العلامة محمد يونس الجونفوري رحمه الله في الواقيت الغالية (ص:٨): "ما ذا أفعل؟ لا أملك على نفسي، ولا ينتهي قلمي بالكتابة عن شيخنا، وأحياناً يعتريني الخوف بما أكتب هنا بدون المعرفة والاطلاع عليه، لكنّي أجد لنفسي العذر، إذ لا نجد على وجه البسيطة من يكون له مثيلاً وندّاً في معرفة الحديث الشريف وطريقة تدريسه الفذة المثالية، وحينما يدرّس صحيح البخاري يُرى أنه بحر زخار لا يدرك ساحله، وترتسم في أذهان الطلاب للحديث الشريف قائمة طويلة لأسماء المحدثين والمتكلمين والمفسرين والشراح وأئمة الجرح والتعديل، ويكون البحث المستفيض حول أحوال الرواة، وما يذكر من قول إلا مع ذكر المراجع والمصادر، ولا يذكر مرجعاً إلا بعد الوصول إلى الأصل، وكان درسه يتشمل على شرح الحديث الشريف وأقوال الأئمة والشواهد للمذاهب المختلفة مع الموازنة وذكر أسباب الترجيح فيها، كأننا نجد خلاصة فتح الباري والعيني القسطلاني والكرماني ولبّها معاً في وقت واحد ومكان واحد، وإن هذا الطريق للتدريس أثّر كبيراً في إنشاء ذوق التحقيق في نفوس الطلبة والراغبين الذين كانوا يواظبون درسه بفارغ صبر، ويملؤون قلوبهم بعلومه العميقة وورعه الرائع، وهناك كثير من المدارس الإسلامية في الهند وخارجها تمكّن فيها على مرتبة "شيخ الحديث" علماء من تلامذته ومن درسوا عنده، ويوضّحون الدقائق العلمية والحقائق الفقهية في دروس الحديث الشريف.

علاقته القوية مع علم الحديث رغم شدة مرضه:

والحقيقة أنه كان ذو شغف زائد بعلم الحديث الشريف منذ بدايته، حتى وصل إلى حدّ الدهشة والحيرة، فإنه كان لا يحصل أحياناً على مال إلا ويشتري به كتب الحديث، وما من هدية و خاصة التي يعطيه شيخه قطب العرب والعجم العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي إلا ويبذله في الحصول على الكتب، حتى صارت له مكتبة عظيمة يندر نظيره عند العلماء الكبار في شبه القارة الهندية، حتى المكتبات العلمية تخلو من أمهات الكتب التي توجد فيها، ومع ذلك كلّه كان يبذل جهوده الجبارة في توفير أحدث الكتب من المكتبات العربية في موسم الحج، رغم شدة الأمراض التي تعتريه، وتشتدّ نفسه وينضح جبينه بالعرق بالمحاولة البسيطة، ولا يستطيع أن يقدّر أحد من الناس بمطالعته العلمية وذوقه الرفيع إلا من يعرفه عن كثب، وبالإضافة إلى هذه المحاولات كان يعاني مجموعة من الأمراض المؤلمة منذ نعومة أظفاره، ويقول هو عن نفسه:

"وفي حين من الأحيان أصبتُ بمرض شديد، حتى قال لي أستاذي ومرشدي: إذهب إلى بيتك فإنّ الدم يسيل من فمك، فقلت: أيها الشيخ! لو كان الموت مكتوباً في هذا الوقت، فهذا المكان أجدر بأن أموت هنا، فقال: فامكث وأمسك نفسك هنا".

والحقيقة أن الشغف بعلم الحديث الشريف كان لحمته وسداه، وشعاره ودثاره، ومصبحه وممساه، ومبدأه ومنتهاه، وشغله الوحيد في نهاره، وعمله اللذيذ في ليله، ومحور حياته كلّها، وإنه كان من العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، وبذل سائر قدراته برمّتها في مطالعة علم الحديث وخدمة هذا الفن الشريف.

براعته التامة في العلوم الأخرى:

ولم يكتف بعلم الحديث فحسب بل هذه ميزة فائقة له، كما كانت له براعة كاملة في العلوم والفنون الأخرى مثل علم النحو والصرف والعروض والمعاني والمنطق و البلاغة والكلام والعقائد واللغة والأدب والفقه والتفسير، ولذلك درّس كتب الفنون الأخرى كذلك في المرحلة الابتدائية للتدريس

بأجود طريقة وأحسنها، وكان صاحب نظر عميق، ومطالعة واسعة دقيقة، حول التاريخ والجغرافيا والسير والسوانح وأحوال الأقوام والملل، كلما يدور في المجلس ما يكون متعلقاً بهذه العلوم المذكورة فيكون عليه بحث مستفيض.

حضر عنده مرة شيخ الحديث من ماليزيا للحصول على إجازة الحديث فقرأ حديثاً وأجازه، ثم أدلى بالتعليق على حركاتها ومستواها ورحّالاتها والأحوال الجغرافية لها وأوضاعها، كأنما هي كلها أمام عينيه، فكلّ من كان في المجلس من العلماء والطلبة والزائرين مدهشاً ومتحيراً بأن الشخصية التي تكون منعزلة عن العالم في الظاهر كانت له نظرة دقيقة على أحوال الدنيا بأجمعها، وقصارى القول إنه كان ذو مطالعة واسعة متنوعة.

مآثره العلمية:

كان ذو شوق متزايد ورغبة شديدة إلى العلم والتدريس والكتابة، وقليلاً ما كان يكتب، ولكن كان لا يكتب بقلم بارد، وحماس فاتر، وموضوعية جافة، وروح دراسية لا لذة فيها ولا طراوة، وإنما كان يكتب كتابة الكاتب الواعي المتفهم، المحب المعجب، ويجدّد بأسلوبه مقومات عظمته ونواحي مزاياه، لذلك يستطيع كل قارئ استيعابه مهما كان مستوى علمه وفهمه، له كتب قيمة ذات فائدة عظيمة صنّفها أو أمر بترتيبها بعض تلامذته، وكلها بقلبه اليقظ وعقيدته الدمثة.

وفاته:

كان الشيخ ـ رحمه الله ـ مصابًا بأمراض مختلفة منذ سنوات طويلة، ولكنه بقي صابرًا، محتسبًا راضيًا بقضاء الله وقدره، وظل يمضي حياته مواظبًا على أعماله الرتيبة، وقائمًا بمسؤولياته وواجباته خير قيام، إذ شعر صباح يوم الثلاثاء بنوع من الألم في صدره، فحُمل إلى مستشفى بسهارنفور، ولقي ربّه وهو في الطريق في الساعة العاشرة صباحاً ١٧/١٠/١٤٣٨هـ الموافق ١١/٧/٢٠١٧م، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أدعو الله تبارك وتعالى أن ينزل عليه شآبيب رحمته، ويسكنه فسيح جناته، ويغفر زلاته، ويعفو عن خطيئاته، ويبدّل سيئاته بحسانته، ويرفع درجاته، آمين يا رب العالمين.